النحو وتعليمهُ

نقل الشيخ بدر الدين الزركشي في قواعدهِ عن بعض المشايخ انهُ كان يقول « العلوم ثلاثة علم نضج وما احترق وهو علم الاصول والنحو وعلم لا نضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث » فعلم النحو هو من العلوم التي نضجت وما احترقت اي اذا استقريتَ كلام العرب فلا تجد اداة او حرفاً او حالة من حالات الكلمة في الجملة الاَّ استنبط لها النحاة حكماً ترجع اليهِ وتقاس عليهِ. فاذا كان الاسم مرفوعاً او منصوباً او مخفوضاً مثلاً فلا يخرج عن حكم المرفوعات او المنصوبات او المخفوضات التي نصوا عليها

وماهو النحو ؟ هو فن الاعراب والبناء. قال القدماء « النحو في الاصطلاح هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة الى معرفة احكام اجزائهِ التي ائتلف منها . وهو في اصطلاح المتأخرين علم يبحث فيهِ عن احوال اواخر الكلم اعراباً وبناء

وما هي فائدتهُ ؟ قالوا ان فائدتهُ التحرُّز عن الخطإ. هذا اذا نظرنا اليهِ كصناعة ولكن اذا نظرنا اليهِ كعلم فلهُ فوائد عديدة فهو يروِّض العقل ويجلو الفكر ولذلك عمي في اصطلاح الاوربيين منطق اللغة . كما انهُ يعرِّف التلميذ بالاحكام الكلية والاصول المستنبطة من استقراء كلام العرب فاذا قلد اسلوبهم كان تقليدهُ عن بصيرة وقياس . على ان هذه الفوائد ليست من اغراضهِ الاساسية بل هي تجيء عرَضاً . واذا رجعنا الى قولهم ان فائدتهُ التحرُّز عن الخطإ كانت تلك الفائدة نظرية لا عملية . لان الكلام الصحيح لا يعلَّم بواسطة قواعد واحكام . قد تتعلم النحو بحذافيره ومع ذلك لا تنزل من اللغة العربية منزلة اهلها ولا تأمن الوقوع في الغلط في قراءتك وكلامك وكتابتك. وهذا الغلط لا يجتنب بدرس قواعد النحو واحكامهِ مما يصح معهُ القول ان قواعد النحو واحكامهُ قليلة الفائدة بل لا فائدة عملية لها . وقد اشار الى ذلك فيلسوف العرب ابن خلدون بل اكبر مفكريهم حيث قال .« ان العلم بقواعد الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية

المحيطين بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى اخيهِ او ذي مودتهِ او شكوى ظلامة او قصد من قصوده اخطأ فيه عن الصواب واكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على اساليب اللسان العربي . وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية . فمن هذا تعلم ان تلك الملكة هي غير صناعة العربية وانها مستغنية عنها بالجملة » . هذا ما قالهُ ابن خلدون على ان السركلهُ في اسلوب النحو لا في النحو نفسهِ ولنا في هذا كلام طويل لا يسعنا استيفاؤهُ في هذه العجالة فنتكلم عليهِ اجمالاً ونرجىء التفصيل الى فرصة اخرى

اولاً . الاسلوب الذي جرينا عليهِ من قديم الزمان الى اليوم هو ان نتعلم اللغة من النحو لا النحو من اللغة فيكون الشأن كل الشأن في اسلوبنا القديم هو معرفة احكام النحو وقواعدهِ اي صناعة العربية وليس اللغة نفسها او كيفية العمل لا العمل نفسهِ كما قال ابن خلدون . وهذا لا فائدة عملية منهُ بل أحرى بهِ ان تصبح اللغة معهُ لغة ميتة . وتحصيل اللغة بالتقليد مهما كان شاقاً اهون على الطالب من ادراك الاحكام الكلية والاصول العقلية ولاسيما اذا كان حدثاً لم تتمَّ قواهُ العقلية بعد ولم تزل لغتهُ محدودة . لان تلك الاحكام تقتضي حصر الفكر وقوة في الحكم ومهارة في تطبيق الاحكام الكلية على اللغة . فاذا اردنا ان نُكسب الطلبة ملكة اللغة وعلكهم قيادها عملياً بحيث اذا قرأوا او تكلموا او كتبوا جروا في ذلك على الاسلوب الصحيح بدون تعقيد ولا اشكال ولا تعسف ولا خلل فاحسن الطرق ان نخاطب التلاميذ باللغة الصحيحة . ان نحرص على ان نجعلهم يقرأون احسن المؤلفات ويستظهرون اجمل القطع نظماً ونثراً . ان نمرنهم كثيراً على الكتابة . ان نتوسَّم ما افاد من عباراتهم وبعبارة اخرى ان تكون اللغة العربية لغة حية تدرس لا لانهم ادبياتها القديمة فقط كما تدرس اللغة اللاتينية او اليونانية بل لتكون لغة التخاطب والتعامل

اذا رأينا التلاميذ يعجزون عن اكتساب ملكة اللغة العربية قراءة وتكلماً وكتابة فليس ذلك ناشئاً عن صعوبة اللغة العربية ولا عن عجز الاساتذة عن تدريسها ولكنهُ ناشىء عن كون اللغة في اكثر مدارسنا ليست اللغة الحية .

يدخل ابناؤنا الى المدارس الاجنبية فلا يلبثون ان يعرفوا اللغة الاجنبية اكثر من لغتهم ويستسهلوا التكلم والكتابة بها اكثر من التكلم والكتابة بلغتهم فيحسب الوالدون ورؤساء المدارس ان ذلك ناشئ عن صعوبة اللغة العربية وسهولة اللغات الاخرى . ولكن لو تدبرنا الامر لرأينا ان ابناءنا انما يتقنون اللغات الاجنبية على صعوبة اكثرها بالنسبة الى لغتنا وعلى جهل اساتذتها احياناً باساليب تدريسها لانهم يستعملونها ويسمعونها دائماً . فهم يدرسونها في الحساب والجغرافية والتاريخ والالعاب والموسيقى والتصوير وسائر الفروع ويتكلمون بها في غرف التدريس وفي ساحات اللعب وفي رواحهم ومجيئهم فلا عجب اذا انطبعت على السنتهم واستسهلوا فيها كل صعب . والامر بالعكس في لغتهم فهم لا يستعملونها الا في كتب قراءتهم واذا تكلموا بها في المدرسة او خارجها فهم انما يتكلمون بلغة اخرى غير اللغة الصحيحة . وعلى ذلك فدرس النحو ليس من الشروط الضرورية لاتقان اللغة واجتناب الغلط . فان كثيرين من كبار الكتاب والشعراء والادباء في اللغة العربية وغيرها اكتسبوا ملكة اللغة وملكوا قيادها على حين لم يتعلموا قاعدة من قواعد النحو بل الذين درسوا النحو في مطولاته اذا قرأوا او تكلموا او كتبوا راعوا في ذلك وحي السليقة لا احكام النحو وقواعده . بل ما قولك في ذلك الجم الغفير من الشعراء والخطباء والادباء الذين نبغوا في الامة العربية قبل وضع علم النحو وبينهم من لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة مثل المتنبس الشاعر المشهور . ومثلهم كثيرون نبغوا بعد وضع علم النحو ولم يكونوا في اول عهدهم من اهل العلم والادب بل كانوا يتعاطون اعمالاً بدوية مثل سري الرفاء الذي نبغ في الشعر على عهد سيف الدولة وهو يرفو ويطرز في دكانهِ وغيره . فكيف اكتسب هؤلاء اللغة ؟ اكتسبوها بالاستعمال والتقليد والتمرن والبداهة . واذا عرفوا احكام النحو وراعوها في استعمالهم فلانهم استخرجوها من اللغة بالاستقراء فهم تعلموا النحو من اللغة وليس اللغة من النحو كما قدمنا . وهذه الاحكام التي استخرجوها بالاستقراء لم يكن لها اقل علاقة باجادتهم في الفنين من المنظوم والمنثور . يقال ان محمود سامي البارودي الذي قيل فيهِ انهُ منشئ العصر كان من اولئك الذين تعلموا اللغة من اللغة نفسها فكان اذا وقع الاسم في كلامهِ بعد انْ او احدى

اخواتها نصبهُ قياساً على نظائرهِ من اقوال غيره من الشعراء المتقدمين وليس على ما عرفهُ من احكام إنَّ واخواتها. وقد لوحظ ان الذين يشتغلون بتمثيل الروايات الموضوعة باللغة العربية الصحيحة قد اصبح الاعراب فيهم ملكة مع ان اكثرهم اميون . فاذاً قبل البحث في اسلوب تدريس النحو يجب ان نعمل على احياء اللغة والاَّ فليس في الاسلوب غناء

واللغة لا تحيا الاَّ اذا استعملناها تكلماً وقراءة وكتابة ولا بأس هنا من التفصيل ولو باختصار تتمة للفائدة . اما التكلم فيجب على الاستاذ ان لا يخاطب تلاميذهُ الاَّ باللغة الصحيحة وان لا يتنزل الى استعمال اللغة العامية في حال والاَّ فهو يعلمهم لغة ويخاطبهم بلغة اخرى . واللغة التي يخاطبهم بها تنطبع على السنتهم اكثر من اللغة التي يعلمهم اياها . ويشترط في استاذ اللغة ان يكون فصيح العبارة مهذب اللفظ جميل الصوت انيق الديباجة لسناً مفوهاً لان التلميذ يتعلم من لغة استاذهِ اكثر من الكتب. وكذلك يجب عليهِ ان يكلف تلاميذهُ ان يستعملوا اللغة الصحيحة ما امكن واذا استطاع التلميذ ان يتكلم باللغة الصحيحة هانت عليهِ الكتابة بها . اما الكتابة فبعد ان يتمرن التلاميذ عليها في الصفوف الصغيرة على اسلوب ليس هذا محل بيانهِ على الاستاذ ان ينشىء لهم جمعية يقدمون فيها الخطب والمناظرات على مثال الاسواق الادبية التي كان العرب يجتمعون فيها للمفاخرة والمناشدة والمناضلة كسوق عكاظ في الجاهلية وسوق المربد في الاسلام. ثم فلينشىء لهم جريدة يتولون كتابتها بانفسهم ولكن ليحذر من ان يكثر ابواب الجريدة ومن ان يتقاضاهم ان يطيلوا في مقالاتهم ومن ان يكتبوا في مواضيع لا يعرفونها فان ذلك يذهب لذتهم بالكتابة واذا ذهبت اللذة اسرع الموت الى الجريدة. بدون هاتين الواسطتين الخطب والجريدة لا يعرف التلميذ لماذا يتعلم الانشاء . واما القراءة والمطالعة فهما من اهم مصادر اللغة . اين توجد اللغة ؟ اللغة لا توجد في كتب النحو حتى ولا في معاجم اللغة وانما توجد في ادبياتها في اشعارها في امثالها في كتب تاريخ الامة واخبارها وما اكثر هذه الكتب في لغتنا . ولذلك يجب على الاستاذ ان يرغب تلاميذهُ في المطالعة . يجب ان يكون في كل مدرسة مكتبة صغيرة للتلاميذ تجمع فيها الكتب النقية العبارة المنزهة عن العجمة والركاكة

والسجع البارد. واحتفاظاً برغبة التلاميذ في المطالعة يجب عليهِ ان ينوع الكتب ويجددها من وقت الى آخر . واحياء اللغة بواسطة التكلم والقراءة والكتابة يحتمل كلاماً طويلاً ولكن بهذا القدر كفاية

ثانياً من عيوب اساليبنا القديمة اننا نعلم النحو قبل ان يفهمهُ التلاميذ وقبل ان يحتاجوا اليهِ وهذا يجعلهُ شاقاً مملاً . نأخذ باباً من ابواب النحو ونعلمهُ للتلميذ بكل تفاصيلهِ ودقائقهِ على حين لا يفهم ذلك ولا يعرف وجه استعمالهِ وربما كانت تلك الاحكام والدقائق مما تقتضيهِ الصناعة لا الاستعمال . مثل هذه الجداول النحوية لان كتبنا النحوية اشبه بالجداول والفهارس مفيدة وقد لا يستغنى عنها ولكن يجب ان تترك الى آخر سني التحصيل فتساعد حينئذٍ على جمع المعلومات الجزئية التي مرت بالتلميذ تدريجاً . وعلى هذا فان كثيرين من الاساتذة لا يعطون تلاميذهم احكام الباب الواحد من النحو دفعة واحدة بل شيئاً بعد شيء حسب احتياجهم اليها وليس حسب ترتيبها في كتب النحو مع التمرين الكافي ليقرنوا دائماً بين الاحكام النظرية والعمل . ما اشبه كتب النحو بكتب اللغة. فان كتب اللغة نافعة مفيدة ولكن لا يمكن ان يتعلم احد اللغة من القاموس وكذلك لا يمكن ان يتعلم احد النحو من كتب النحو . وعندي انهُ يجب ان يوضع قاموس للنحو كما وضع قاموس لالفاظ اللغة ولعل كتاب مغني اللبيب لابن هشام من هذا النوع . وحينئذٍ يجب ان تستعمل كتب النحو كما تستعمل كتب اللغة . لا يرجع الى القاموس الاَّ عند الحاجة كذلك لا يرجع الى كتب النحو الاَّ عند الحاجة . لا يرجع الى القاموس لمعرفة كل مادة بكل اشتقاقاتها ووجوه استعمالها بل ليعرف معناها في سياق مخصوص وكذلك لا يرجع الى كتاب النحو ليعرف حكم من احكامهِ بكل تفاصيلهِ ودقائقهِ بل ليعرف منهُ شيء عن ذلك الحكم في جملة مخصوصة . لا يجوز ان يكون القاموس بين ايدي التلاميذ من اول امرهم حين يحتاجون الى مراجعة كل كلمة بل اذا رجع التلميذ الى القاموس في الكلمة من عشر كلمات فان ذلك يبوئهُ مللاً ويعوق نجاحهُ ولذلك يجب ان تكون دروسهُ في اللغة متدرجة من السهل الى الصعب من المعلوم الى المجهول من القريب الى البعيد لئلاَّ تعترضهُ الصعوبات دفعة واحدة . وهكذا الامر في النحو فانهُ

يجب ان تتدرج فيهِ من الاحكام السهلة الى الاحكام الصعبة من الاحكام المألوفة الى الاحكام الغير المألوفة ويجب ان يتخلل ذلك تمارين كافية ليرسخ معها الحكم في الذهن فقد قيل ان نصف المعرفة مع مضاعف الاستعمال احسن من مضاعف المعرفة مع نصف الاستعمال

وكما انهُ لا يجوز ان يكون القاموس بين ايدي التلاميذ من اول امرهم كذلك لا يجوز الابتداء بالنحو في الصفوف الابتدائية اولاً لان عقول التلاميذ لا تستطيع ادراك احكامهِ العقلية وقد اصطلح الاوربيون ان لا يعلموا النحو قبل ان يجاوز تلامذتهم الثانية عشرة من العمر. وثانياً لان دروس القراءة والاستظهار والانشاء تغني عنهُ

ثالثاً ومن عيوب اسلوبنا القديم ايضاً ان الحدود فيهِ موجزة بحيث تكاد تكون الغازاً ومن النحاة من تكلف نظمها شعراً مثل ابن مالك الذي افتخر في ارجوزتهِ بانها « تقرب الاقصى بلفظ موجز » على ان هذا الايجاز في اللفظ يستهلك دقائق اذهنة التلاميذ ويستغرق اوقاتهم في استخراج معناهُ وقد لا يستطيعون استخراجهُ فيذهب التعب والعمر ضياعاً. ولعل توخي النحاة هذا الايجاز في كلامهم مما افسد عليهم لغتهم على انهم من الجهة الثانية يسهبون في شرح تلك الحدود الموجزة بل المشكلة على غير فائدة واحياناً يخرجون عن الموضوع الى مماحكات لا طائل تحتها مما يرهق الطالب ويسئم نفسهُ . واما اليوم وقد اصبح الوقت ثميناً ومواضيع الدرس عديدة فعلى الاستاذ ان يبسط تلك الحدود ويراعي في تقريراتهِ افهام تلاميذهِ ولا يستعمل كلمة خارجة عن مألوفهم

رابعاً . ومن عيوب اسلوبنا القديم قلة التمارين فيهِ . والتعليم بالتمارين اصول يجدر بكل استاذ ان يراعيها وهي

(١) لا تأتِ بمثل غريب عن افهام تلامذتك بل لتكن امثالك مما يعملونهُ او يقولونهُ او يفتكرون بهِ . واحسن الامثال ما كانت تحت انظارهم يرونها ويطبقون القاعدة عليها . اذا اردت ان تعلمهم الفاعل مثلاً فلا تقل مثل قام زيد لئلا تنصرف افكارهم الى احضار هذا الشخص في اذهانهم بل خذ واحداً منهم وكلفهُ ان يقوم او يقف او يدخل او يخرج او يمشي واسألهُ ماذا فعلت ثم اسألهُ

من فعل القيام او القعود او الدخول او الخروج او المشي . واذا اردت ان تعلمهم المفعول فلا تقل مثل ضرب زيد عمراً بل اطلب من احد تلامذتك ان يحمل الكرسي او يفتح الباب او يمحو اللوح او يمزق الورق فان هذا اقرب الى افهامهم من تلك الامثال المصطنعة التي لا يكاد نحوي يخرج عنها

(٢) الاحكام يجب ان تستخرج من الامثال لا ان تبنى الامثال على الاحكام اي يجب ان نستعمل في تعليمنا النحو اسلوب التحليل لا اسلوب التركيب . خذ الجملة وحللها الى اجزائها وعرف التلاميذ علاقة كل كلة باخرى لا ان تأخذ القاعدة وتفصل احكامها ثم تسأل التلاميذ ماذا يتركب منها . وبناء عليهِ فالاحكام الكلية يجب ان تتبع لا ان تسبق التمارين وهي عين الطريقة التي جرى عليها واضعو النحو فانهم استخرجوا احكامهُ بالاستقراء . رأوا الاسم مثلاً يرفع في مثل قولنا قام الولد ثم استقرأوا ذلك في نظائر هذه الجملة فكان الامر كذلك فوضعوا القاعدة الكلية. فاتبع طريقتهم ولا تكتفِ بمثل واحد لان استخراج الحكم من مثل واحد لا يكون استقراء

خامساً ومن عيوب الاسلوب القديم ان الاحكام فيهِ لا تشفع باسبابها الطبيعية. لعلم اولادنا المرفوعات والمنصوبات والمخفوضات بدون ان نشير الى الاسباب الطبيعية التي جعلت العرب تنصب الاسم في هذه الجملة وترفعهُ في تلك ولهذا لا يمكن ان يحل ابناؤنا في اللغة العربية محل العرب . بل قد تحمل النحاة بعض الاسباب لتلك الاحكام ولكنها اسباب واهية لا يقوم عليها دليل علمي ولا ينهض فيها برهان معقول حتى ضرب المثل بضعف حجة النحوي .وليس يخفى ان كل قانون نحوي هو قانون منطقيّ وكل اصطلاح في لغة يمثل حالة عقلية او اخلاقية في الامة التي تستعملهُ يميزها عن غيرها. وان اشكال اللغة تمثل اشكال الفكر البشري. ولعلّ هذا البحث من اجل ابحاث النحو واعونها على ترويض العقل.ولسنا نظن ان الوقت يتسع الآن لان نلم بهذا الموضوع لانهُ يحتاج الى مقالة برأسها فنرجئهُ الى فرصة اخرى والامور مرهونة باوقاتها

خليل السكاكيني
مدير القسم العربي في المدرسة المعيدية